الثقافة الإسلامية

(٩٠)

التفويض

آخر مراحل السلوك إلى اللّه

تأمّلات في حديث: (أول العلم معرفة الجبّار وآخر العلم تفويض الأمر إليه)

الإصدار الثاني

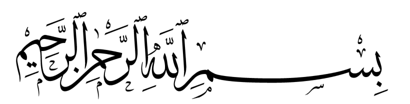
مع إضافات وتصحيح وتنقيح

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات
ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي
- ٩٠ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... التفويض آخر مراحل السلوك إلى الله
المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الثانية: .... ١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م
الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

غافر/ ٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أول العلم معرفة الجبّار وآخر العلم تفويض الأمر إليه».

أول ما تعرفت على هذا الحديث يوم بدأت الدراسة الدينية في النجف الأشرف، وفي أول درس تلقيته من كتاب في الاشتقاق. ولا أزال أذكر اسم الكتاب (شرح الأمثلة) ... بدأ أستاذنا رحمه الله تعالى الدرس بهذا الحديث الشريف، وشرحه شرحاً موجزاً. ومنذ ذلك الحين ثبت هذا الحديث الذي تلقيته في الدرس الأول في حياتي العلمية في ذاكرتي، إلاّ أنني لم أعرف حينئذ المغزى الدقيق والعميق له، وبعد ذلك بزمن، ليس بقصير، عرفت بعض ما في هذا الحديث من دلالات وأفكار. فهو يختزل على وجازته كل الرحلة الطويلة للإنسان في عالم المعرفة، من (المعرفة) إلى (التفويض)، وهي رحلة طويلة وشاقّة. ولكنها رغم مشقتها شيّقة. وكل شاقّ في الحب شيّق.

٦...التفويض آخر مراحل السلوك

في هذه الرحلة يقطع الإنسان منازل ومراحل من المعرفة والسلوك، وتتداخل في هذه الرحلة المعرفة بالسلوك.

بداية الرحلة ونهايتها والمراحل المتوسطة بينهما

بداية هذه الرحلة (معرفة الجبّار)، والمرحلة الأخيرة منها (تفويض الأمر إليه)، وبينهما مراحل متوسطة كثيرة شاقّة وشيّقة، فمن الناس من يقف دون المرحلة الاولى، ومن الناس من يقف عند هذه المرحلة، ومن الناس من يتجاوز المرحلة الاولى إلى المراحل المتوسطة. والناس في المراحل المتوسطة على مستويات ومراتب كثيرة، حسب المرحلة.وكلما تتقدم المرحلة يقلّ العدد.أمّا الذّين يبلغون آخر الشوط حيث يفوّض العبد الأمر إلى الله فأقلّ من القليل.



هذه الرحلة رحلة إلى الله تعالى. والرحلة إلى الله تعالى صعبة، وشاقّة وعسيرة، وعلى طريق ذات الشوكة. وذلك أنها بعكس جاذبية الهوى والأنا تماما. وكل رحلة (داخل النفس) بخلاف الهوى والأنا شاقّة وعسيرة، إلّا أنها رحلة شيّقة في نفس الوقت، ولا يحجب ما في هذه الرحلة من عناء وعذاب العبد السالك عمّا فيها من لذّات وبهجة.

رحلة النور والمعرفة:

وهذه الرحلة كلها معرفة. لأن الرحلة إلى الله تعالى في كل منازلها نور ومعرفة. أولها معرفة الجبّار، وآخرها تفويض الأمر إليه، وهو أعلى مراحل المعرفة، وبين هذه البداية وتلك النهاية منازل ومراحل شتى مختلفة متفاوتة من المعرفة لا نستطيع أن نحصيها في هذه المقالة فضلا عن الشرح والبسط.

هذه الرحلة رحلة النور والبصيرة، وفي كل منزل من منازلها درجة من النور والمعرفة فوق المنزل الأول، ويتعاكس في منازل هذه الرحلة ظهوران إثنان: الظهور الإلهي في قلب العبد، وظهور(الأنا) و(الهوى) في نفسه وسلوكه. وكلما يتقدم العبد منزلا من منازل السلوك والسفر إلى الله تعالى، يزداد الظهور الأول قوة وظهورا في نفس العبد، ويختفي بقدره (الهوى) و(الأنا) والتّعلق بالدنيا في نفس العبد وسلوكه، حتى يختفي (الهوى) تماما في منزل التقوى ويختفي التعلّق بالدنيا عن افق الناس تماما في منزل (الزهد).

التخالف بين الظهور الإلهي وظهور الذات في هذه الرحلة:

ولكن يبقى (الأنا) و(الذات) تلاحق الانسان في هذه الرحلة حتى المنزل ما قبل الأخير.

وفي كل منزل يزداد الظهور الالهي قوة وظهورا في قلب العبد بالنسبة إلى المنزل السابق عليه من منازل السلوك، وبمقداره يختفي الهوى، حتى يختفي تماما، الا ما يكون منه مطاوعا لأمر الله تعالى ونهيه، ويختفي الأنا والذات ويضعف حتى يفنى (الأنا) و(الذات) تماما في مرحلة (التفويض)، وهي المرحلة الاخيرة في هذه الرحلة.

وفي هذا المنزل يكون كل شيء، من نفس العبد وارادته وحركته تحت تصرف الله تعالى ... ويكون تعالى هو الحاكم المهيمن على قلب العبد وسلوكه وارادته وعقله وحركته في هذه الرحلة.

وسوف نتحدث عن هذا الحديث الشريف في ثلاث فصول:

الفصل الأول: في نقطة البداية في هذه الرحلة، وهي معرفة الجبّار. ولماذا كانت بداية هذه الرحلة المعرفة ؟ ولماذا معرفة الجبّار ؟

والفصل الثاني: في نقطة النهاية في هذه الرحلة، وهي (التفويض)، وهي الغاية في هذه الرحلة الطويلة، ولماذا هي الغاية والنهاية ؟

والفصل الثالث: في المنازل المتوسطة بين تلك البداية وهذه الغاية.

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا وعي هذه المنازل وطيّها.

والآن نتحدث عن نقطة البداية في هذه الرحلة ؟

نقطة البداية في هذه الرحلة

نقطة البداية في هذه الرحلة: معرفة الجبّار. وهي بداية كل معرفة، فإن معرفة الله تعالى أصل كل معرفة حقّة، وبدايتها. وكل معرفة حقّة ينحدر عن هذه المعرفة، وكل ما لا ينحدر عن هذه المعرفة وما لا يؤول إليها، وما يتقاطع معها فهو من

الثقافة الباطلة.

وتغطّي هذه البداية كل مساحة المعرفة، وكل مساحة السلوك إلى الله تعالى، وكل مساحة شبكة العلاقات في حياة الإنسان.

ولهذا الإجمال تفصيل، ليس محلّه الآن.

العلاقة بين المعرفة والسلوك:

و(المعرفة) أحد الوجهين، والوجه الآخر (السلوك)، سواءً كان السلوك سلوكاً جارحيا[١] أم سلوكاً جانحياً[٢].

وبين (المعرفة) و(السلوك) علاقة وثيقة، لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر.

إنّ لكل معرفةٍ، سلوكيةٌ تخصّها، وهذه قاعدة سلوكية لا استثناء لها. وبناءً على ذلك فإن معرفة الالوهية، تستتبع سلوكية الطاعة والعبودية

(١) الاعضاء الظاهرة.

(٢) سلوكا نفسيا باطنيا.

ومعرفة الربوبية تستتبع الاستعانة.

ومعرفة رحمة الله تعالى تستتبع سلوكية الأمل والرجاء.

ومعرفة القهّار الجبّار تستتبع سلوكية الخوف والطاعة.

ومعرفة الغفور الرحيم تستتبع الاستغفار.

ومعرفة جمال الله تعالى تستتبع الحمد.

ومعرفة جلال الله تعالى تستتبع التسبيح.

ومعرفة نعم الله تعالى تستتبع الشكر.

ومعرفة حكمة الله تعالى تستتبع التفويض والتسليم.

ومعرفة الشهود والحضور الالهي تستتبع المراقبة.

وهكذا لكل نموذج من المعرفة نموذج من السلوك الجوارحي أو الجوانحي يشتقّ منها.

ـ ١ ـ

المعـرفـة

معرفة الجبّار:

والآن لماذا معرفة الجبّار في بداية هذه الرحلة الطويلة ؟

نقطة البداية، في هذه الرحلة الطويلة، أن يعـرف الإنسـان أنّـه محكـوم لإرادة الله تعـالى، وأنّ الله تعـالى يحكمـه، فـي التكوين والتشريع.

ولا سـبيل للإنسـان إلـى الخـروج عـن دائـرة سـلطان الله وحاكميته. ولا يسعه غير الطّاعة والتسليم ...

وهذا هـو معنـى (الجبّـار)، فـي أسـماء الله تعـالى وصـفاته الحسنى، ولا يسع الإنسان ازاء الجبّار إلاّ أن يطيع ويستسلم.

فهو القابض، الباسـط، المحيـي، المميـت، المعزّ، المـذل، الرافع، الواضع، الخالق، المدبّر، الضارّ، النافع، الرزاق، القهّار، الوهّاب، المانع، الجبّـار، الحـاكم، فعّـال لمـا يشـاء، يفعـل مـا يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره، وكل شيء خاضع لأمره، وكل

حول وقوة تقوم به تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق٣.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ سبأ/ ٣.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ﴾ الأعراف/١٨٨.

﴿وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء﴾ البقرة/ ١٠٥.

﴿وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة/ ٢٤٥.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء، وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء، وَتُعِزُّ مَن تَشَاء، وَتُذِلُّ مَن تَشَاء، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران/ ٢٦.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ البروج/ ١٦.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء

اللّهُ﴾يونس/٤٩.

﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**﴾ يونس/ ١٨

﴿**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا**﴾ المائدة/ ٧٦.

﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ التغابن/ ١١.

﴿**لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ القصص/ ٧٠

﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ**﴾ الأنعام/ ٥٧.

﴿**لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ الأعراف/ ٥٤.

ووعي سلطان الله تعالى وحكمه وقهره وجبره وملكه ونفوذ حكمه وأمره هو المدخل إلى الطّاعة والعبودية، والطّاعة والعبودية المنزل الأول من منازل العروج إلى الله تعالى. وهذا إجمال لا بدّ له من تفصيل، وإليك هذا التفصيل.

الحتمية التكوينية والتشريعية

إنّ الله تعالى يحكم عباده بحتميتين (جبرين):

أ – الحتمية التكوينية.

ب – الحتمية التشريعية.

أ ـ الحتمية التكوينية:

وهي اولى الحتميتين، ويخضع الإنسان لهذه الحتمية في الدنيا والآخرة. فهو تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء، اين يشاء، فعّال لما يريد، لا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون.

يخلق الذكر والأنثى، ويخلق الناس شعوباً وقبائل، ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء، يهب الملك لمن يشاء، وينزع الملك عمّن يشاء، يضع ويرفع، ويحيي ويميت، ويرزق ويمنع:

﴿**يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ**﴾ الشورى/ ٤٩.

﴿**هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون**﴾ يونس/ ٥٦.

﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ،**

سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾القصص/ ٦٨.
﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء﴾ آل عمران/ ٢٦
﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيد ُ﴾ البروج/ ١٦
﴿وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾ النساء/ ٤٧.
﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ الأعراف/ ٥٤.
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء﴾ آل عمران/ ٢٦.
له الملك المطلق والسلطان المطلق يوم الدّين.
﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الفاتحة/ ٤.

الحتمية التكوينية المطلقة والمعلّقة:

والحتمية التكوينية على نحوين:
الحتمية المطلقة المشروطة.
والحتمية المشروطة المعلّقة.
القسم الأول من الحتمية نحو قوله تعالى: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء﴾، ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء

إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾.

والحتمية المعلّقة نحو قوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾، ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾، ﴿**وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾، ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾، ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾.

فإنّ هذه الآيات ايضا ترسم صورا من الحتميات التكوينية، الاّ انها على نحو التعليق، وبذلك فلا تنفي إختيار الإنسان، الا ان النتيجة حتمية، وان كانت المبادئ إختيارية. وهذا نحو من التزاوج بين الحتم والاختيار، لا ينفي اختيار الإنسان، ولا ينفي حتمية القضاء والحكم الإلهي. فيكون للإنسان الاختيار في المبادئ. ويكون القضاء الحتم لله تعالى في النتائج.

وهو نحو من أنحاء (الأمر بين الأمرين) الذي ورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

الإنسان بين الحتمية المطلقة والحتمية المعلّقة

وتقع حياة الإنسان بين هاتين الحتميتين الإلهيتين: المطلقة والمعلّقة، فيشعر أنّه مقهور بسلطان الله تعالى، يعيش في دائرة السلطان الإلهي (المطلق) و(المعلّق) في الدنيا والآخرة، حيث لا سلطان إلّا سلطان الله تعالى.

وحتى في المساحة التي مكّنه الله تعالى فيها من الاختيار، في حياته الدنيا لا يملك النتائج، ولا بدّ له من أن يخضع لسلطان الله تعالى في النتائج.

ولكن هذا السلطان الإلهي المنبسط على الكون، وفي حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، في المساحة الحتمية المطلقة، وفي المساحة الحتمية التعليقية ... قائم على اساس العدل والحقّ، وليس في هذا السلطان الإلهي على الكون وعلى حياة الإنسان ظلم أو باطل.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الأنعام/ ٧٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ﴾

إبراهيم/ ١٩.

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ الحجر/٨٥.

فيشعر الإنسان تجاه الله تعالى بالخضوع والركون.. (الخضوع) لانه مقهور لهذا النظام التكويني القائم على الحتمية القطعية والتعليقية، و(الركون) لان هذا النظام الكوني الحتمي قائم على الحقّ والعدل والرحمة، وليس على الباطل والظلم.

ب - الحتمية التشريعية:

إلى جانب الحتمية التكوينية (الجبر التكويني)، الحتمية التشريعية (الجبر التشريعي)، وهي الإلزامات الإلهية في حياة الإنسان.

وتغطي الشريعة حياة الإنسان بطائفة واسعة من الإلزامات والتكاليف.

وهذه التكاليف والإلزامات التشريعية موجودة في كل

الشرائع الإلهية، لا تخلوا منها شريعة. وهي قائمة على القسط والعدل والحقّ والرحمة.

﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ**﴾ الأعراف/ ٢٩.

﴿**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ الحديد/ ٢٥.

والإنسان ازاء هذه الإلزامات التشريعية يجب أن يلتزم بالطاعة.

غير أن هذه الطاعة تتم باختيار الإنسان وكامل حريّته، ولا تسلبه حريّته في إتّخاذ القرار. فإنّ الجبر التشريعي، لا يسلب الإنسان حرية القرار والاختيار، بخلاف الجبر التكويني الذي يسلب الإنسان حرية القرار والاختيار.

ويشعر الإنسان إلى جانب الطاعة بالركون والاطمئنان، لأنّ الشريعة قائمة على أساس القسط والعدل والرحمة.

الإنسان بين الجبر التكويني والتشريعي

ويقع الإنسان بين هذين الجبرين (الجبر التكويني

والتشريعي) ... فيشعر بالخضوع لأحكام الله التكوينية وقضاء الله وقدره، وأنّه ليس بوسعه أن يخرج عن دائرة سلطان قضاء الله تعالى وقدره، وأنّه مقهور، مجبور، في هذه الدائرة، ويشعر في الدائرة التشريعية بالإلزامات الإلهية التي تلزمه وتجبره على الطاعة ... ولا سبيل له إلى الخروج عن دائرة الطاعة إلّا بالعصيان والإثم.

وهو يقع بين تلك الحتمية وهذه الحتمية في الدائرة التكوينية والتشريعية.

والنتيجة التي يخرج بها الإنسان من معايشة هاتين الحتميتين هي مزيج من الخضوع والطاعة: الخضوع لقضاء الله تعالى التكويني والطاعة لأحكامه التشريعية، وهو معنى العبودية.

وهذا الخضوع وهذه الطاعة يتمّان عن ركون واطمئنان نفسي، لعلم الإنسان بأنّ أحكام الله تعالى في التكوين والتشريع قائمة على أساس الحقّ والقسط والرحمة.

وهذه هي نقطة البداية في علاقة الإنسان بالله.

ان نقطة البداية في هذا الطريق هـي الطاعـة والخضـوع لله تعالى، وهي تحصل من معرفة الجبّار.

إنّ الطاعـة هـي أدب العبوديـة، ومـن غيرهـا لا يمكـن أن يتقدّم الإنسان خطوة واحدة على هذا الطريق الصعب والوعر.

﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة/ ٢٨٥.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ النـور/٥١.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَـا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ الأحزاب/ ٦٦.

- ٢ -

التفـويـض

المنزل الاخير: (**التفويض**)

المنـزل الأخيـر مـن منـازل السـالكين إلـى الله تعـالى، التفويض. وقد وردت هذه الكلمة فـي القـرآن الكـريم علـى لسان مؤمن آل فرعون، عندما كـان يحـاور قومـه، فيـدعوهم إلى الله، فيهددونه ويخوفونه، فيقول لهم:

﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بالْعِبَاد، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾ غافر/٤٤- ٤٥.

وهذا المنزل هو القمّة في حركة العبد إلى الله، يترك العبد تدبير أمره كلّه لله تعالى، ويضع نفسـه وإرادتـه وقلبـه وعقلـه، وجوارحه، وجوانحه، وحاضـره، ومستقبله، وموقعـه، ودنيـاه، وآخرته تحت تصرّف الله تعالى يفعل به ما يشاء.

واثقا بأنّ تدبير الله تعالى خير من تدبير العبـد. وإذا اسـتقلّ الإنسان بتدبير أمره فإنه يخطئ ويصيب، وما يخطئ أكثـر

مما يصيب، ولكن إذا أوكل تدبير أمره إلى الله تعالى فلا يريد الله به إلّا ما يصلحه، ولا يكون إلّا ما يريده الله تعالى.

الخلق والتدبير

والتدبير غير الخلق ... وقد خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام (مراحل)، ثم أستوى في المرحلة السابعة على العرش يدبّر أمر الكون.

واليهود يعتقدون أنّ الله تعالى إستراح في اليوم السابع[١] وترك أمر الكون والإنسان للقوانين التي خلقها في الكون وفي المجتمع في المرحلة (اليوم) السابعة.

وهذه القوانين الكونية والإجتماعية هي التي تدبّر الكون والمجتمع ... ولا تتدخل الإرادة الإلهية في تدبير الكون ... وليس الأمر كذلك في القرآن الكريم. أنّ اليوم السابع في القرآن الكريم يوم التدبير وليس يوم الاستراحة، ونحن اليوم نعيش في اليوم السابع أو المرحلة السابعة من الخلق، وان يد

(١) راجع سفر التكوين من العهد القديم.

الله تعالى مبسوطة في تدبير الكون والمجتمع منذ ان خلق الله الكون والإنسان.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [1] يونس/ ٣.

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾ الإنسان/ ٣٠

فإذا عرف الإنسان أنّ الله تعالى هو مدبّر هذا الكون، وأنّ الله تعالى بصير بعباده، خبير بما يصلحه ويفسده، رؤوف به، رحمن رحيم، فوّض تدبير امور حكمه إليه تعالى بثقة وإطمئنان.

(١) والشفيع هو من يتوسط بين الله وخلقه في الخلق والتدبير من الأسباب والعلل. وهذه الأسباب لا تعمل إلاّ بإذنه الله تعالى، فإن الله تعالى الحاكم المهيمن عليها، بيده تعالى أمر وجودها وعدمها وبقائها، وفنائها، وهو تعالى مسبب الأسباب.

التفويض: إيمان وتسليم

ان التفويض هنا: ايمان وتسليم.

ايمان بأنّ الأمر كلّه بيد الله، وله الحكم والسلطان المطلق، في السّراء والضرّاء، وأنّ الله تعالى بصير بالعباد، رحمن، رحيم، حكيم، وهذا الشطر الأول من (التفويض).

والشطر الثاني من التفويض، وهو كالنتيجة للشطر الأول، التسليم لله تعالى في كل أمر، والرضا بأمر الله، دون قلق وإرتباك، وأن يدع الإنسان تدبير أمره كلّه لله سبحانه.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (عجبت للمرء المسلم، أنّه ليس من قضاء يقضيه الله عزّ وجلّ إلّا كان خيرا في عاقبة أمره)[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أحقّ خلق الله أن يسلم لما قضى الله عزّ وجلّ من عرف الله عزّ وجلّ).

عن أبي عبيد الحذاء عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (قال الله) إنّ من عبادي المؤمنين لعبادا لا

---

(١) توحيد الصدوق:٤١.

يصلح لهم أمر دينهم إلّا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلاهم (فأبليهم) بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح لهم أمر دين عبادي (أمر دينهم)[١].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: ما أبالي أصبحت فقيرا أو مريضا أو غنيا لأنّ الله يقول: لا أفعل بالمؤمن إلّا ما هو خير له)[٢].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عجبا للمؤمن لا يقضي الله عليه قضاء إلّا كان خيرا له، سرّه أو ساءه، إن ابتلاه كان كفّارة لذنبه، وإن أعطاه وأكرمه كان قد حباه) [٣].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: (فيما أوحى الله إلى موسى بن عمران يا موسى ما خلقت خلقا أحبَّ إليَّ من عبدي المؤمن، وإنّي إنّما أبتليه بما هو خير له، وأعطيه لما هو

---

(١) بحار الأنوار ١٥١/٧١ ح٥٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ١٥٢/٧١ ح٥٤.

خير له، وازوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه، فليصبر على بلائي، وليرض بقضائي، وليشكر نعمائي، اكتبه في الصدّيقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري)[١].

وعن الصادق عليه السلام: (ان أعلم النّاس بالله أرضاهم بقضاء الله عزّ وجلّ)[٢].

وعن ابن سنان عمّن ذكره قال، قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بأي شيء يعلم المؤمن بأنّه مؤمن، قال: (بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط)[٣].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لشيء مضى: لو كان غيره)[٤].

وعن أنس بن مالك أنه قال: (خدمت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين، وما قال لي لشيء فعلته: (لم فعلت) ؟، ولا لشيء لم

---

(١) المصدر ١٦٠/٧١ ح٧٧.
(٢) ميزان الحكمة ٦:١٥٩.
(٣) أصول الكافي ٢:٦٣.
(٤) المصدر السابق.

أفعله (هلا فعلت) ؟، ولا في شيء لم يكن (ليته كان)، وكان اذا خاصمني مخاصم من أهله يقول: دعوه، لو قضى شيء لكان)(١).

* * *

التفويض قمة التوحيد والسّلم

واذا عرف الإنسان هذه البصيرة التوحيدية فوّض أمره إلى الله تعالى، والتفويض هنا قمّة التوحيد.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الإيمان له أركان أربعة: التوكّل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله) (٢).

فيفوض الإنسان أمره اليه تفويضا كاملا، بثقة وإطمئنان، كما يفوض المريض أمره إلى الجرّاح، يفتح صدره بالسكّين، وكما يسلّم الراكب في الطائرة أمره إلى الطيار في

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢٣١/٣.
(٢) بحار الأنوار ١٥٧/٧١ ح٧٥.

أعماق الجوّ، مطمئنا واثقا.

ولا تنطبق هذه الأمثلة على التفويض، فإنّ التفويض أرقّ وأدقّ من ذلك، وانما نستعين بها على فهم الموضوع.

ان المريض إنّما يسلّم أمره إلى الجرّاح، والمسافر في الوادي والبراري إنّما يسلّم أمره إلى الدليل، وركاب الطائرة إنّما يسلّمون أمورهم إلى الطيّار لأداء مهمة معيّنة يطلبونها، وهي إعادة السلامة إلى المريض والدلالة في الصحاري والبوادي، وسلامة الوصول لركاب الطائرة.

وهذا أمر آخر غير التفويض ... إنّ هؤلاء يعتمدون الطبيب والدليل والطيار في مهمة معيّنة، ثقة بهم في أداء هذه المهمّة، ولو علم المريض إنّه لن يعود إلى الحياة بعد أن يشقّ الجرّاح صدره، ولو علم راكب الطائرة انه لن يعود إلى الأرض، بعد ما يقلع به الطيّار إلى السماء لما سلّموا أزمّة أمورهم إليهم.

وإنما (التفويض) أن يُسلّم الإنسان كل أمره إلى الله، ويدع الأمر إلى الله – بالكامل – فيما يحب وما لا يحب، وما

يريد وما لا يريد، ويجرّد نفسه عن كل إرادة وحب ورغبة، ويفوّض أمره كله إلى الله تعالى ليدبّر أموره كما يحب ويريد، بالسرّاء والضرّاء، وبالرخاء أو العسر، وبالغنى أو الفقر، وبالمرض أو السلامة، من دون اعتراض، ولا رفض، ولا عتاب.

وقد قرأنا قريبا أن رسول الله ﷺ، لم يكن يقول لشيء قد مضى: (لو كان غيره).

وهذا هو معنى التفويض.

وهو بمعنى (التسليم المطلق لله تعالى). وليس للتسليم معنى غير هذا المعنى.

في منزل التفويض يختفي (الأنا) تماما عن ساحة النفس في التعامل مع الله تعالى ، ويتجرّد الإنسان ، عن كل ذاته وأنانيته، بإرادته واختياره، لتكون إرادته ورغباته جميعاً في امتداد ما يريد الله تعالى.

والأنا حبٌّ ، وبغض ، وعزم ، ورفض ، ورغبة ، وعزوف ... فإذا أراد الإنسان أن يفوّض أمره إلى الله تعالى ... يجب

أن يتجـرّد عنهـا جميعـا ... وهـو بمعنـى التجـرّد عـن (الأنـا) و(الذّات).

وليس بوسع أحد أن يأخذ معه (الأنا) الى منزل التفـويض في سلوكه إلى الله. إنّ الإنسان قد يصـطحب معـه (الأنـا) فـي أيّ منزل من منازل السلوك إلـى الله ، بِقَـدَرٍ أو بـآخر ... امـا فـي منـزل (التفـويض) فـلا يصـطحب الإنسـان معـه شـيئا مـن (الأنا) قط.

ولا يسع اللغة التعبير الدقيق عـن حالـة الإنسـان فـي منـزل (التفويض)... فماذا نصنع إذا كان وعاء اللغة وعاءً قاصراً عـن التعبير عن هذه المرحلة من السلوك الانساني إلـى الله بشـكل دقيق... فقد قلت في تعريف التفويض: (ان يضع الإنسان أمره تحت تصـرف الله، ليفعـل بـه مـا يشـاء، مـن غيـر اعتـراض أو رفض أو عتاب أو انكمـاش)... وهـذه الجملـة حسـب قواعـد اللغة العربية، تتألف من فعل وفاعـل (يضـع الإنسـان)، ولـيس بوسع اللغة اكثر من ذلك، ولا يمكن تجريد الفعل عن الفاعل في بناء الجملة، وليس الأمر كذلك في منزل التفويض.

فليس في هذا المنزل فعل وفاعل، وإنّما هو فعل فقط، ويبقى الفاعل (الأنا) خلف الأبواب، لا يؤذن له بالدخول إلى هذا المنزل، ولكن أداة اللّغة أداة عاجزة عن تصوير رحلة الإنسان إلى منزل التفويض.

اسماعيل (ع) في منزل التفويض

وسلام على إسماعيل، عندما قال له أبوه إبراهيم عليه السلام في وادي منى، حيث لا يشهده إلّا الله وملائكته ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾، ... لم يشأ أبوه ابراهيم عليه السلام أن يجرده من إرادته ورغبته وحبّه، وإعراضه وإقباله وأنانيته قسرا، ﴿**فَانظُرْ مَاذَا تَرَى**﴾ ليدخل هذا المنزل، اذا شاء بملأ إرادته، ولن يدخل الإنسان هذا المنزل، إلّا بكامل إرادته.

فقال الفتى اليافع، اسماعيل عليه السلام لأبيه الطّاعن في السنّ إبراهيم عليه السلام: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾، فأطلق يد أبيه الشيخ الكبير، في أن

يذبحه، من غير اعتراض، ولا إعراض، ولا انكماش، ولا توقّف: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ووعده أن يكون صابراً تحت حدّ السكّين، لا يصرخ ولا يتأوّه، ولا يضطرب ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ولكن ما إن تفوّه بهذه الكلمة (ستجدني) حتى عرف أنّه اصطحب معه ظِلالاً من الأنا باهتة معه إلى هذا المنزل (ستجدني)(١)، وهو ما لا ينبغي أن يكون. فهو لا يدخل هذا المنزل الرفيع إلّا بعد أن يتجرد من (الأنا) بشكل كامل، فلا يصطحب معه ظلالاً أو أثراً للأنا إلى هذا المنزل، فيتدارك عليه السلام الأمر سريعا، ليدفع الأنا وإيحاءاته عن نفسه، فيقول (إن شاء الله) بعد كلمة (ستجدني) مباشرة، فهو بمشيئة الله يصبر، وليس بعزمه وإرادته.

إنّ مركب اللّغة مركب ضعيف لا يتحمّل المعارج العالية للعبد إلى الله تعالى، فلا محالة تعجز اللّغة، عمّا تطيق النفس

---

(١) ياء المتكلم.

من المنازل العالية التي يعرج فيها الإنسان إلى الله.

التفويض آخر مراحل السلوك إلى الله

ان منزل (التفويض) قمّة التوحيد. وآخر مراحل السير والسلوك إلى الله تعالى، يغيب فيها الأنا والذات غيابا كاملا.

وإذا تم للعبد إفناء (الأنا) في هذه المرحلة من مراحل السلوك إلى الله ... يقع بالكامل في إمتداد إرادة الله. فتكون إرادته وعزمه من إرادة الله تعالى، وعزوفه وإنصرافه عن إرادة الله، وحبّه وبغضه لما يحبّ الله ويبغض. ولا يحبّ إلّا ما يحب الله ولا يُبْغض إلّا ما يُبْغض الله، ويحبّب الله تعالى إليه الإيمان والعمل الصالح فيحبّهُ، ويُكرِّهَ إليه الكفر والفسوق والعصيان، فيكرهه.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ الحجرات/ ٧

وهذا التّحبيب والتكريه في النفوس من فعل الله تعالى وإرشاده لقلب عبده ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، يتمّ بإرادة العبد وحبّه وكرهه.

وعكس ذلك ايضا يكون، حيث يريد الله أن يعاقب عبده العاصي فيسلب منه هذا الرشد ويكره إنبعاثه إلى الجهاد، فلا ينبعث له، فيثبّطه عن الخروج، فيقعد مع الخوالف.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ التوبة/٤٦

هؤلاء يكلهم الله تعالى إلى أنفسهم، ويسلب منهم الرشد، فلا يريدون ما يريد الله، ولا يحبّون ما يحبّ الله، وينزعون إلى ما يكره الله تعالى، وينبعثون إلى ما يغضب الله تعالى.

عندما يسمع العبد بالله ويبصر بالله

وعندما تكون إرادة العبد وحبّه وبغضه وإقباله وإعراضه ورغبته وعزوفه ... في إمتداد حبّ الله وبغضه وإرادته وكرهه ... كان الله سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به

يبصر، ولسانه الذي به ينطق، ويده التي بها يبطش، إذا دعاه أجابه، وإذا سأله أعطاه.

في الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (قال الله: ما تحبب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما إفترضته عليه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها ... إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته، وما تردّدت في شيئ أنا فاعله كتردّدي في موت المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)[١].

وسبب هذه الشفّافية والبصيرة القويّة في السمع والبصر، والقوة في البأس، والسداد في المنطق والخطاب ... أنّ إرادة العبد، وسمعه، وبصره، وعقله، وحبّه، وبغضه، ويده، ولسانه تكون في امتداد ما يحبّ الله ويريد، فيتّصل المحدود بالمطلق، والظلام بالنور المطلق، فيكتسب الإنسان عندئذ هذا النصر والسداد والقوة.

---

(١) بحار الأنوار ٢٢/٧٠ عن المحاسن/٢٩١.

* * *

حجاب (الأنا) و(الهوى)

إنّ (الأنا) يحجب الإنسان عن الله، وهو والهوى من أعظم مصائب الإنسان، وإذا تمكّن العبد من أن يتجرّد منهما فقد إستطاع أن يتخلّص من أعظم مصيبتين في حياته (الهوى والأنا).وهما حجابان وعائقان يحجبان العبد ويعيقانه عن الله تعالى، وأخفّهما (الهوى)، وأشقّهما (الأنا)، وقد يتجرّد الإنسان عن الهوى في المنازل الاولى للسلوك (منزل التقوى والطّاعة)، ولكنّ (الأنا) يبقى يطارده ويلاحقه في منازل السلوك، والعروج، إلّا منزل التفويض، الذي لا يدخله الأنا قط.

لا أذكر الآن من هو قائل هذا البيت من الشعر، وأظنّه حسين بن منصور الحلاّج، إلّا أنني أعلم أنّ قائل هذا البيت من الشعر قد وضع يده على أعظم مصائب الإنسان في سلوكه إلى الله تعالى، وشخّص بدقّة الحجاب الأكبر الذي يحجبه عن الله، وإليك الشعر:

بيني وبينك إنيّـي ينازعنـــــي

فارفع بفضلك إنيّي من البيــن[١]

ويقول ايضاً:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

ويقصد الشاعر هنا بالوجود: (الأنا).

إنّ من يتمكن أن يزيل حجاب الأنا بينـه وبـين الله تعـالى، يصل حوله وقوّته وبصره وسمعه وعزمـه وإرادتـه بـالله تعـالى ... فيكون حوله موصولا بحول الله تعـالى، وبصـره موصـولا ببصر الله تعالى وسمعه موصولا بسمع الله تعالى، فلا يُقهَـرُ ولا يَضلُّ.

وهذا هو منـزل التفـويض الـذي يتنـازل فيـه الإنسـان عـن (الأنا) ، وما يريد وما لا يريد، ويدع الأمر كله لله تعالى ليريد

(١) لا يعني قبولنا لهذا البيت مـن الشـعر الموافقـة علـى أفكـار الحـلاّج وآرائه.

له ما يشاء ويصرفه عمّا يشاء، ويعطيه ما يشاء، ويمنع عنه ما يشاء.

الفرق بين خضوع الإنسان القهري والطوعي لمشيئة الله

وان الانسان كل انسان – لا محالة – لا يخرج عن قبضة سلطان الله وقدرته، ولا يمكن أن يريد ما لا يريده الله تعالى.

﴿**وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ**﴾[1] الإنسان/ ٣٠، التكوير/ ٢٩.

فالانسان خاضع لمشيئة الله تعالى وإرادته، على كل حال، وإرادته وعمله في إمتداد إرادة الله. ولكن الفارق بين هذا الخضوع لمشية الله تعالى وخضوع الإنسان في مراحل العروج إلى الله تعالى ... أنَّ الأول يتم بصورة قهرية، والثاني يتمّ بصورة طوعية من قبل العبد ... وكل قيمة هذه التبعية والإمتداد أن يكون طوعيّا وبإرادة الإنسان ... هذا أولا.

---

(١) ليس معنى الآية الكريمة الجبر وسلب اختيار الإنسان في الإرادة... ولا مجال لبسط الكلام عن ذلك هنا.

والفـارق الثـاني أنّ الإرادة الإلهيـة فـي الأولـى تكوينيـة قهرية، وفي الثانية تشريعية.

وكمال الإنسـان فـي حركتـه وسـلوكه إلـى الله أن يكـون خضوعه وتبعيته لإرادة الله عن طوع واختيار.

وقيمة الإنسان في إتّبـاع الإرادة التشـريعية لله تعـالى. وأمّـا الإرادة القهرية التكوينية لله تعالى فإنّ الإنسان يخضع لها رغم إرادته.

* * *

التخالف بين الظهور الإلهي وبروز الذات في سلوك الإنسان

ولقد قلنا من قبل، ونزيده هنا توضيحا وبيانا.

انّ (الظهور الإلهي) و(بروز الأنا) والهـوى والتعلّـق بالـدنيا في مراحل السلوك الصاعدة والنّازلة متعاكسة، فكلّمـا يقـوى الأنا ويبرز في مراحل السـير إلـى الله تعـالى يضـعف الظهـور الإلهي في نفس الإنسان ويقوى بروز الأنا والهوى، حتى يبلغ الحضيض عند ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ الذي نطق به فرعون.

وبالعكس كلّما يعرج الإنسان في معارج السلوك إلى الله تعالى يخفت بروز الأنا والهوى ويقوى الظهور الإلهي في نفس العبد، فيقوى عنده الإخلاص لله والطاعة والانقياد لله، وابتغاء مرضاة الله، وتقوى الله، وتخفّ عنده الأنانية والذاتية، وطغيان الهوى، والتعلّق بالدنيا، حتى يبلغ القمة عند (ستجدني إن شاء الله من الصابرين).

وهذان خطّان متعاكسان في سلوك الإنسان إلى الله تعالى.

فيضعف الهوى حتى يختفي تماما في منزل (التقوى) بينما يقوى الظهور الإلهي في نفس العبد في معارج الصعود إلى الله تعالى.

وفي منزل (الزهد) يضعف (حب الدنيا) والتعلق بها في الإنسان حتى تختفي تماما او تكاد أن تختفي، وبقدر ما تختفي وتنتفي، يبرز الظهور الإلهي وينشدُّ العبد بالله تعالى، حتى إذا أفنى العبد ذاته في الله تماما. فلم يكن له حب، ولا بغض، ولا عزم، ولا عزوف، ولا رغبة، ولا كره إلاّ في امتداد ما يحبّ الله، ويبغض، ويريد، ويكره، فذلك هو منزل

(التفويض)، وهو قمّة التوحيد في حركة الإنسان إلى الله تعالى.

بين التوكّل والتفويض

التفويض فوق درجة التوكّل.

ففي منزل التفويض لا يختفي الأنا من ساحة النّفس، وإنّما يعتمد (الأنا) (في موضع الرفع) (الله) (بالنصب) سبحانه وتعالى، ويضع ثقته فيه تعالى، ويتّخذه وكيلا في مهامه وأعماله.

فليس التوكل اذن، بمعنى افناء (الأنا) في الله تعالى، كما هو التفويض، وإنّما التوكل إسناد الإنسان للأنا بالله تعالى، فيتخذ الإنسان الله (بالنصب) تعالى وكيلا، ويجبر به ضعفه.

وفي التفويض يفوّض الإنسان (بالرفع) الله (بالنصب) في نفسه وحياته، فيتخلى عن نفسه ومشتهياته وإرادته، ورغبته، وعزوفه، وعزمه لله، كما لو كان الإنسان يبيع بضاعة للآخر فيقبض الثّمن، ويتخلى عنها تماما. وهو يختلف عمّا لو اتّخذ الإنسان وكيلا عن نفسه على بضاعته أو محلّه أو داره. فهي لا

تزال متعلّقة به، وهو لا يزال متعلّقاً بها، غير أنّه اتّخذ وكيلا عنه للعناية بها وإدارتها، وهي تختلف عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾ التوبة/ ١١١.

فلا يصح ان ينظر خلفه، ويتابع البضاعة التي باعها. فقد قبض الثمن وتخلّى عنها، وانتهت علاقته بها.

كذلك الإنسان عندما يفوّض الله تعالى أمر نفسه.

ان التوكّل على الله منزلة رفيعة، من معارج الإنسان إلى الله تعالى، إلّا أنَّ (الأنا) لم يفارق الإنسان في هذا المنزل، فهو يحمل مشروع طلب يعجز عن أدائه، فيتخذ الله وكيلا، ويستعين به، بينما التفويض إنهاء كامل للأنا، وإفناء للذّات في الله تعالى وبينهما فرق.

ولا شكّ أنَّ التوكّل منزلة رفيعة، وأنَّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ به، وأن هذه المنزلة من منازل التوحيد، غير أنّ كلّ ذلك لا ينفي أن يكون التفويض فوق مرحلة التوكّل ويشير إلى ذلك العارف أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري في (منازل

السّائرين).

يقول عن التفويض: (وهو ألطف إشارةً، وأوسع معنىً من التوكّل، فإنّ التوكّل بعد وقوع السّبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الإستسلام، والتوكّل شعبة منه).

ويقصد العارف الأنصاري بالسبب: الطلب ويقصد بقوله: التوكّل بعد وقوع السبّب: أنّ الإنسان قد يطلب شيئا فيعجز عنه، فيتّخذ الله وكيلا عن نفسه في إنجاز ما عجز عنه في طلبه ومسعاه. وأمّا التفويض فهو قبل وقوع السّبب، أي قبل وقوع الطلب والسعي، وإنّما يفوّض العبد أمر سعيه وحركته وطلبه وإرادته وعزوفه إلى الله، ليوجّهه إلى ما يريد تعالى من الطّلب والعزم والعزوف والحبّ والبغض. وبعد وقوع السبب (أي الطلب) فيلغي طلبه ويفني إرادته في إرادة الله، وحبه وبغضه فيما يحب الله ويبغض، وقد يكون معنى السبب، السبب الذي يفضي إلى الإرادة والطّلب، والمعنى واحد على كل حال.

ويناقش في ذلك ابن القيم الجوزية، فيقول (فالذي نذهب

إليه: أنّ التوكّل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع)[١] ، إلاّ أنّ ابن القيم لم يذكر وجهاً واضحاً لكلامه حتى ينظر فيه.

والصحيح هو ما يراه العارف الأنصاري في منازل السائرين[٢] ، ولكنه دقيق ويحتاج إلى إمعان ونظر وتأمّل.

يقول العلاّمة الطباطبائي في (الميزان) في تحديد موقع منزل (التفويض) من منزل (التوكّل)، التفويض هو الردّ، وتفويض الأمر إلى الله: ردّه إليه، فيقرب من معنى التوكّل والتسليم، والاعتبار مختلف. فالتفويض من العبد رده ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه. وحال العبد حينئذ حال من هو أعزل، لا أمر راجعا إليه. والتوكّل من العبد جعله ربّه دليلا يتصرف فيما له من الأمر. والتسليم مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه، من غير نظر إلى انتساب أمر إليه، فهي مقامات ثلاثة من مقامات العبودية، التوكل ثم التفويض

---

(١) مدارج السّالكين ١٣٩/٢ تحقيق محمد حامد الفقي.

(٢) مدارج السّالكين ١٣٧/٢ – ١٣٨.

وهو أدقّ من التوكل ثم التسليم وهو أدقّ منهما[١].

ولنا ملاحظتان على كلام العلامة الطباطبائي رحمه الله في الميزان:

الملاحظة الأولى: أن التوكل والتفويض بناءً على التوضيح الذي أعطاه العلامة رحمه الله لكل منهما غير متقاربين.

فإن التوكل على ما يقوله رحمه الله (جعله ربه دليلاً يتصرف فيما له من الأمر)[٢]، بمعنى أن العبد يريد أمراً، يعجز عن تحصيله بقواه وامكاناته الذاتية، فيتخذ الله تعالى وكيلاً له في تحقيق ما عجز عنه هو، وهذا التعريف صحيح، وكن الأنا وإرادة الإنسان قائمتان في سلوكه النفسي، غير أن يتوكل على الله في تحقيقها وتحصيلها.

والتفويض على ما يقول رحمه الله (هو الرد وتفويض الامر إلى

---

(١) تفسير الميزان ٣٣٤/١٧. والصحيح إن التفويض هو عين التسليم، ولا معنى للتفويض بالصورة التي يرسمها العلامة الطباطبائي رحمه الله غير التسليم.

(٢) الميزان ١٧/ ٣٣٤.

الله سبحانه، وحال العبد حينئذ حال من اعزل، لا أمر راجع إليه)[١].

وهو بمعنى أن يتخلّى العبد عن إرادته وعن طلبه عن الأنا وطلبات الأنا ومشاريع الأنا لله تعالى، فيكون أعزلاً عن الأنا والإرادة. . وهو أيضاً صحيح.

ولكن إذا صحّ تفسيرنا لكلام السيد الطباطبائي رحمه الله في الأول والثاني، فإنّ التفويض يختلف عن التوكّل اختلافاً جوهرياً، فإنّ الأول يتمّ ببقاء الأنا وبقاء إرادة العبد وعزمه وحبّه وبغضه على حاله، والثاني يتمّ في إفناء إرادة العبد وحبّه وبغضه في إرادة الله وهما معنيان مختلفان.

والملاحظة الثانية في (التسليم) فإنّ العلاّمة رحمه الله يقول في معنى التسليم (والتسليم مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه، من غير نظر إلى انتساب أمر إليه)[٢].

---

(١) الميزان ١٧/ ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق والموضع السابق.

فإن كان يقصد بالفقرة الأخيرة من كلامه (من غير نظر إلى انتساب أمر إليه) إفناء إرادته في إرادة الله تعالى، بحيث تكون الإرادة منتسبة إلى الله، وإرادة العبد فانية في إرادة الله، فهذا هو التفويض نفسه، ويبقى التفويض آخر مراحل السلوك، ولا أمر فوقه، والتسليم والتفويض يؤولان إلى أمر واحد.

وإن كان لا يقصد هذا المعنى فإن (المطاوعة المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه[1] من غير نظر. الخ) فهذا المعنى ليس فوق منزل التفويض وإنما هو دونه، لانه بمعنى الطاعة في الاوامر التشريعية، والتسليم وعدم الاعتراض في القضاء والقدر الإلهي فيما يصيبه من الابتلاء.. وهو بالتأكيد منزل دون منزل التفويض.

ولعلنا لم نحسن فهم مراد السيد الطباطبائي قدس الله سره.

---

(١) يقصد رحمه الله بإرادة الله (فيه) معنى الإرادة التكوينية المتمثلة في القضاء والقدر الإلهي، ويقصد بـ(منه) الإرادة التشريعية فيما يريده الله تعالى من العبادات والطاعات.

بين الرضا والفقر والتفويض

و(الرضا) من منازل السالكين الرفيعة، إلّا أنّه دون منزل التفويض. فان العبد في منزل (الرضا) يطوّع رضاه لرضا الله تعالى، ويرضى بما يرضى به الله، ويطابق بين رضاه ومرضاة الله تعالى ... وهذا هو منزل الرضا، وهو من أرفع منازل السلوك إلى الله، ولكن يبقى (للأنا) حضور في ساحة النفس، إلّا أنّه حضور مطاوع لرضا الله، وفي إمتداد رضا الله تعالى.

وهو أمر آخر غير الغاء الأنا. والتفويض إلغاء للأنا، وأن يتخلّى الإنسان عن رضاه لرضا الله تعالى ويتجرّد من كل حبّ وبغض ورضا وسخط، ويكون رضا الله تعالى وحبّه وبغضه وسخطه هو رضا العبد وحبّه وبغضه وسخطه، لا بمعنى مطاوعة مرضاة الله، وإنّما بمعنى التخلّي عن رضاه لرضا الله تعالى.

وفرق واضح بين أن يرضى بما يرضى به الله تعالى له من سرّاء أو ضرّاء أو شدّة أو رخاء، وبين أن يتخلّى عن رضاه لرضا الله، ويتجرد عن كل رضا وسخط وحب وبغض له لله

تعالى ... فإنّ للأنا حضور مطاوع في إمتداد حضور الله تعالى في منزل (الرضا)، ولكنه على كل حال حضور للأنا، مهما كان موقع الأنا من الله ومطاوعته لله. ما لم يتخل من الأنا كاملا. ولذلك كان هذا المنزل آخر منازل المعرفة وعليه فإنّ أول منازل المعرفة طاعة الله تعالى الجبّار وأخر منازل المعرفة التخلّي عن الأنا بين يدي الله تعالى.

و(الدعاء) من حالات الإنسان في منزل الفقر والاضطرار إلى الله تعالى. ولكن يبقى أن نقول ان في كل دعاء واضطرار وفقر، طرف فقير ومضطر يدعو ويلتمس ويطلب.

وفي منزل التفويض لا يوجد طرف آخر غير الله، ويفني العبد وأنانيته وذاته كلها في الله تعالى، ليس له طلب ودعاء، إلّا ما يريده الله تعالى له.

وخلاصة الكلام، وقد اطلنا الكلام في التوضيح والتكرار عن عمد، لندفع كل لبس عن هذا المفهوم الدقيق من مفاهيم الثقافة القرآنية ... خلاصة الكلام: ان التفويض الغاء للذات والأنا تماما، وأمّا التوكّل فهو إسناد الأنا ودعمه في عجزه،

بتوكيل الله تعالى، وجبر عجزه بذلك. والرضا تطويع الأنا لمرضاة الله، وشتّان بين تطويع الأنا، وحتى قهر الأنا، وبين إلغاء الأنا، الذي هو منزل التفويض إلى الله تعالى ... والدعاء والفقر والاضطرار، اعلان لفقر الأنا واضطراره إلى الله تعالى، وهو أمر يختلف اختلافا واضحا عن التفويض. وقد ذكرنا من قبل ان هذا هو معنى (التسليم) الذي يكثر ترديده في الثقافة الروحية في الإسلام، ولا معنى للتسليم غير التفويض. واختلاف العناوين لا يغيّر الواقع.

الغاء الأنا ليس بمعنى تعطيل الإرادة

يبقى أن نشير إلى نقطة هامّة جديرة بالتوقف والتأمّل، في هذا السياق، وهي أنّ إلغاء الأنا ليس بمعنى تعطيل الإرادة والحب والبغض والسعي والحركة في حياة الإنسان.

كالمريض يتقدم إلى الطبيب الجراح ليغيّبه عن وعيه وإرادته وإحساسه تماماً، ثم يستخدم في جسمه السكين، في غياب كامل من المريض، حسّاً، ووعياً، وإرادة.

ومن يتصوّر (التفويض إلى الله) بهذه الصورة السلبية أفقد

التفويض قيمته وصادر كل معطيات التفويض.

إنّ التفـويض يفعّـل وينشّـط الإرادة والعـزم والعـزوف والطلب والحب والبغض والحركة ولا يعطّلها.

وحقيقة التفويض ان يفوّض العبد إِرادته وإِقباله وإِعراضه وعزمه وعزوفه وسخطه ورضاه لله تعالى ليجعل ارادته وعزمه وحبّه وبغضه من إرادته وعزمه، فيوجّهه الله حيث يريد تعالى من السعي والفعل والحركـة والطلـب، يفنـي إرادة العبـد فـي إرادتـه وحبّـه وبغضـه وسـخطه ورضـاه فيمـا يحـب ويـبغض ويرضى ويسخط، وليس هذا بمعنى أنه تعـالى يسـلب إرادتـه وحبّه وبغضه ورضاه وسخطه.

وشتّان بين الأمرين، بـين أن يسـلب الله إرادة العبـد وحبّـه وبغضه ورضاه وسخطه، وإقباله وإعراضه، فيكون آلـة لتنفيـذ إرادة الله كالجماد والنبات، وبين أن يجعل الله إرادة العبد من إرادته، وحبه وبغضه مـن حبـه وبغضـه، ورضـاه وسـخطه مـن رضاه وسخطه، فيكون خليفة لله تعالى، كما خلق الله الإنسان، وليس آلة لتنفيذ إرادة الله كالنبات والجمـاد ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ**

لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وعندئذ تكون إرادة العبد ووعيه وحبه وبغضه ورضاه وسخطه أقوى وأشد وأصفى وأنقى وأحق، لأنه إذا أبصر أبصر بالله، وإذا سمع سمع بالله، وإذا نطق نطق بالله، وإذا بطش بطش بالله، ومن يبصر ويسمع وينطق بالله لا يبصر ولا يسمع ولا ينطق إلاّ حقاً، ومن يبطش بالله كان بطشه عدلاً وقوياً.

ان الحب والبغض والإقبال والإعراض والطلب والسعي قائمة في نفس كلّ إنسان بالفطرة والخلقة. إلّا أنّ (الأنا) هو محور الحبّ والبغض والرضا والسخط والسعي والطلب في حياة عامّة النّاس.

امّا الصفوة من النّاس فيفوضون حبهم وبغضهم ورضاهم وسخطهم وعزمهم وإرادتهم ووعيهم وفهمهم، وعقلهم إلى الله تعالى، ليوجههم الله حيث يريد، سرّهم ذلك أم ساءهم،

---

(١) البقرة/ ٣٠.

اولئك يحبّب الله إليهم الإيمان، ويزّينه في قلوبهم، ويكرّه اليهم الكفر والفسوق والعصيان.

يقول تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾ الحجرات/٧.

إنهم يحبّون ويكرهون، كما يحبّ النّاس ويكره النّاس ولكنّ حبّهم وبغضهم ورضاهم وسخطهم صنائع الله تعالى. والله ألهمهم الحبّ فيما يحبّ، والكره لما يكره، والإقبال لما يريد والإعراض عمّا لا يريد، والرضا بما يرضى، والسّخط عمّا يسخط.

وينطلق من هذا الحبّ والبغض والإقبال والإعراض والإرادة والعزم طلب وسعي وحركة.

فيطلبون، ويدعون الله ليحقق لهم ما يطلبون، ويسعون، ويتحركون، ويخطّطون، ويقاومون، ويرفضون، كما يعمل سائر النّاس بل أقوى من الطلب والحركة والرضا والسخط عند سائر الناس، لأنّ هذا الرضا والسخط لا ينطلق من محور

الذّات، بل هما من صنائع الله في نفوس عباده. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل ويخطط ويسعى ويتحرك ويدعو الله تعالى لتحقيق ما يريد، ولم يكن يريد إلاّ ما يريده الله ولا يسعى إلاّ إلى ما يحبّه الله تعالى.

والمعنى دقيق ورقيق، وبحاجة إلى معايشة، رزقنا الله تعالى.

ولا يحسبّن أحد أنّنا ننحو منحى الجبر والحتمية السلوكية عندما نقول: ان ارادتهم ورضاهم وسخطهم وطلبهم ودعائهم من صنائع الله فاننا نقول: ان الله يجعل إرادتهم من إرادته، ولسنا نقول ان الله يسلب إرادتهم، وشتّان بين الأمرين والجبر هو الثاني، وأمّا الأول فهو محض الاختيار، ولكن بتوجيه الله وتسديده، والأول خليفة الله في أرضه، والثاني آلة وأداة كالجماد والنبات. والحالة المعاكسة لذلك ان يكله الله إلى نفسه، ويسلبه التأييد والتسديد ... وليس هذا ولا ذاك من الجبر والحتمية السلوكية، وإنّما هما بمعنى الهداية من الله وسلب الهداية ... وهو بمعنى إيكال الإنسان إلى نفسه.

وكل منهما إختيار.

إذن ليس معنى التفويض: تعطيل العقل والإرادة والعزم والطلب والدعاء والحركة والرضا والسخط. ولا بدّ من التأمّل وإنعام النظر، لتفكيك هذه المسائل في حوزة الثقافة الإسلامية بعضها عن بعض، لئلّا تشتبك فتتداخل، فيكون سببا للالتباس المفهومي والمعرفي.

موقع التفويض من نظام (الذكر)

للذكر معنى عام ومعنى خاص. والمعنى الخاص قسم من أقسام الذكر العام، والذكر العام مقسم للذكر الخاص وغيره وبعد هذا التوضيح نقول ان ذكر الله على ثلاثة أقسام:

١ – الذكر الخاص.

٢ – الدعاء.

٣ – الجهد النفسي للحركة والقدوم والإقبال والعودة والسعي إلى الله تعالى.

وإليك التوضيح:

ذكر الله، الطلب من الله، الحركة إلى الله

١ – الذكر الخاص، الذكر بمعنى الاستحضار في النفس، في مقابل الغفلة وهي الغياب من افق النفس. وذكر الله هو استحضار صفات الله وأسمائه الحسنى وحضوره في الكون وهيمنته وقيموميته على الكون والإنسان في النفس، وهو نحو من المعايشة النفسية لصفات الله وأسمائه الحسنى وحضوره وهيمنته على الكون والإنسان، ومن ذلك الحمد والتسبيح والشكر والتكبير والتهليل والتمجيد والثناء. ومن ذكر الله أن يذكر الإنسان الله تعالى حين يهمّ بالمعصية فيردعه، وحين يتكاسل عن الطّاعة فيقوده اليها، فإنّ ذكر الله يبعث في نفس الإنسان مخافة الله فيمتنع عن المعصية، والشوق والإقبال على الطاعة فيقدم على الطاعة.

٢ – الدعاء، وهو حالة الطلب والالتماس من عند الله تعالى، والدعاء هو أحد وجهي القضية والوجه الآخر الإجابة. والدعاء من العبد والإجابة من عند الله تعالى.

حالة الحركة إلى الله

٣ - والحالـة الثالثـة الجهـد النفسـي فـي القـدوم علـى الله والإقبال والسعي إلى الله، وهو حركة داخل النفس، يقوم بها العبد باتّجاه الله تعالى ورحمته ومغفرته وأمنه وحمايته من عبده. مثل التوكّل والتفويض والاستعاذة. وهذه الحالة ليست من النوع الأول ذكر أو حمد وشكر وثناء، فليس فيها حمد وشكر وثناء كما هو واضح، وليست من النّوع الثاني: طلب ودعاء ... فانّ الدعاء نوع من التعاطي مع الله (الأخذ والعطاء) يرفع العبد حاجته إلى الله ويأخذ من الله تعالى الإجابة لطلبه وفقره، ويستغيث بالله، ويستعين بالله، فيتلقى من الله الإعانة. وهذا النوع الثالث ليس من الطلب والدعاء، وإنّما هو جهد نفسي وحركة داخل النفس باتّجاه التفويض إلى الله والتوكّل على الله والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم. وليس هذا من مقولة الحمد والثناء والذكر، ولا من مقولة الطلب والدعاء ، وإنّما هو مقولة ثالثة من مقولات اللّقاء وهذا واضح، لا يحتاج إلى بيان، وإن كان لم يفرز بعد في

الدراسات العرفانية الإسلامية ولم يفتح بعد لهذا العنوان باب في العرفان الإسلامي لنعرف ما فيه من كنوز المعرفة،ولا أظنني أستطيع أن افتح هذا العنوان من العناوين الثلاثة للقاء بالله في هذه المقالة العاجلة.

والذي اعلم وأقول الآن: ان هذه المقولة الثالثة ليست من مقولة الدعاء والطلب ولا من مقولة الذكر ... وإنّما هو من مقولة الفعل والقدوم والحركة إلى الله والسعي إليه تعالى.

إنّ التوكّل على الله نوع من الفعل والجهد النفسي، ويسمّيه علماء الاصول (الإنشاء) في مقابل (الخبر). فقد قالوا في تعريف الخبر: أنه ما يحتمل الصدق والكذب، وليس في الإنشاء صدق وكذب، وإنّما يتردّد أمره بين الوجود والعدم. إمّا أن يكون وإمّا أن لا يكون كالاستفهام والأمر والنهي والطلب.

والإنشاء جهد نفسي يجري داخل النفس. إلاّ أنه نوع خاص من الإنشاء ليس من نوع العقود، لأنّ العقود تتعاطى بين الإيجاب والقبول، وليس من نوع الدعاء والطلب.

وإنّما هو من نوع الإيقاع من طرف واحد يشبه العتق والطلاق في الفقه. وهو جهد نفسي بإتّجاه الله.

مثل التوكّل، وهو الإعتماد على الله تعالى [١] وتوكيل الله،

---

(١) دعانا الله تعالى أن نتوكّل عليه وأن نتخذه وكيلا.
يقول تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ النساء/ ٨١.
وهذه دعوة إليهما معا.
﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ النساء/١٣٢.
﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ آل عمران/ ١٧٣.
وهذه دعوة إلى أن نتخذ الله وكيلا.
ويقول ﴿وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إبراهيم/ ١٢.
وهذه دعوة إلى التوكل على الله تعالى.
فما معنى أن يتخذ الإنسان الله وكيلا. وما معنى التوكّل على الله ؟
المعنى الأول واضح لا يحتاج إلى بيان.
وأمّا المعنى الثاني وهو (التوكّل على الله) ... يقول الراغب في المفردات (ص ٥٣١ مادة وكل:والتوكل يقال على وجهين. يقال توكّلت لفلان بمعنى توليت له. ويقال وكلّه فتوكل لي (وهذا هو المعنى الأول الذي ذكرنا أنّه واضح لا يحتاج إلى بيان)، وتوكلت عليه ←

وهو أن يتّخذ الإنسان الله وكيلا، ومن عجب أن التوكيل في الفقه من العقود، وفي العلاقة بالله تعالى من الإيقاعات.

ومثل التفويض وهو أن يَدَعُ الإنسان أمرَه لله تعالى،

بمعنى اعتمدته. قال عزوجل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الطلاق/ ٣، (الراغب في المفردات).

والسؤال هنا كيف استخرج الراغب هذا المعنى من (التوكل على). ان معنى (التوكل لـ) معنى واضح لا نتوقف عنده، ولكن عندما يتم تعدية التوكل بـ (على) يكون معناه الاعتماد، كما يقول الراغب، وهو حق.

والسؤال من أين جاء هذا المعنى للتوكل عند التعدية بـ (على)؟ وجواب ذلك:إن العرب قد يشربون لفظا في بعض حالات التعدية معنى غير معناه فتختلف حالات التعدية فيه عن حالته الأولية. بقول ابن هشام في القاعدة الكلية الثالثة من قواعد الباب الثامن من كتاب (مغني اللبيب): (قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطون حكمه ويسمّى ذلك (تضميناً) وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين. فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ﴾ آل عمران/ ١١٥ أي فلن يحرموه ثوابه، ولهذا عدّي إلى اثنين بنفسه، لا إلى واحد بنفسه وإلى الثاني بـ (على) راجع: مغنى اللبيب لأبن هشام/ الباب الثامن/ القاعدة الثالثة.

ويفوّض أمره إليه.

ومثل الاستعاذة، وهو أن يطلب الإنسان اللجوء إلى حمى الله تعالى من الشيطان وهو جهد نفسي للدخول في حمى الله تعالى.

فإنّ الاستعاذة قد يفهم على نحو الدعاء، وهو بمعنى طلب اللجوء والأمن من الله عن الشيطان. وقد يفهم بمعنى السعي والحركة النفسية للدخول في حمى الله تعالى، كما يَفِرُّ الإنسان من السباع إلى ملجأ يحفظه منها، والاستعاذة من القسم الأخير، فإنّ حقيقة الاستعاذة هي الحركة النفسية باتجاه اللجوء إلى الله والدخول في حمى الله تعالى، ولا أقل من أن يكون القسم الأخير من الاستعاذة.

وكذلك التوبة حركة نفسية باتجاه عودة العبد إلى الله نادماً على ما فرّط منه من السيئات.

وقد يتوب الله على عبده وقد لا يتوب، وهو التوّاب الغفور الرحيم، ولكن التوبة تتحقق على كل حال من العبد بالعزم على الإقلاع عن المعاصي، والعودة إلى الله تعالى،

والندم عمّا صدر عنه من السيئات ... وكل ذلك جهد نفسي من ناحية العبد يتحقق بالعزم على الكفّ والعود. وهي تختلف من الاستغفار، فالاستغفار من مقولة طلب المغفرة من الله، والفرق بينهما واضح. فإنّ التوبة جهد نفسي للعودة إلى الله، وأمّا الاستغفار فهو طلب للمغفرة وهذا هو الفرق بين الدعاء وبين الإيقاع والإقدام والإقبال.

فهذان بابان من أبواب اللقاء بالله. الباب الأول الطلب من الله تعالى، والتّضرّع إليه، والتماس عفوه ومغفرته والثاني الحركة - داخل النفس - إلى الله تعالى وإذا أضفنا إلى ذلك مقولة الذكر - بالمعنى الخاص، تكون أبواب اللقاء بالله ثلاثة:

١ - الذكر الخاص.

٢ - الدعاء.

٣ - الجهد النفسي للحركة والإقبال والإقدام على الله تعالى.

والتفويض من هذا الباب، يَدَع الإنسان أمره لله عزَّ شأنه

ليصنع به ما يريد، ويوجّهه ويوجّه إرادته وعقله، وحاضره، ومستقبله، ودنياه كما يحب، واثقا بأنّ الله تعالى أبصر منه وأخبر بما يصلحه وما لا يصلحه... ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾.

الدعوة إلى الأذكار الثلاثة

نجد في القرآن الكريم دعوة وترغيب من الله تعالى لعباده إلى الأذكار الثلاثة المتقدمة.

وإليك نماذج من هذه الدعوات:

١ - الدعوة إلى الذكر الخاص.

يقول تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ**﴾ الكهف/ ٢٤.

﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً**﴾ الأعراف/٢٠٥.

﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ**﴾ آل عمران/١.

﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ المزمل/ ٨.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الإنسان/ ٢٥.

٢ - الدعوة إلى الدعاء.

وفي كل دعاء دعوتان واستجابتان.

الدعوة الأولى من الله لعباده إلى دعائه.

والاستجابة الأولى من العبد لدعوة الله تعالى، فإنّ دعاء العبد استجابة لدعوة الله تعالى لعباده إلى دعائه.

والدعوة الثانية من العبد لله تعالى في شؤونه وحاجاته.

والاستجابة الثانية من الله تعالى لدعوة عبده... وهذه اربع نقاط مباركات في كل دعاء.

وإليك نموذج من القرآن الكريم عن الدعوة الأولى والثانية والاستجابة الأولى والثانية.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة/١٨٦.

أمّا الاستجابة الأولى فهو قوله تعالى ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾،

وأمّا الدعوة والاستجابة الثانية فهو قوله تعالى ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فهذه دعوة واستجابتان تجمعهما هذه الآية الكريمة.

وعن الدعوة والاستجابة الثانية يقول تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل /٦٢.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الأنفال/ ٩

وعن الدعوة الأولى والاستجابة الثانية يقول تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر/ ٦٠

٣ ـ الدعوة إلى الإقبال والإقدام والعودة إلى الله تعالى

والاستعاذة بالله والتسليم والتفويض إلى الله وتوكيل الله. يقول تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الأعراف/ ٢٠٠.

وهذه دعوة من الله لعباده إلى الاستعاذة به من الشيطان

الرجيم.

ويدعونا الله تعالى إلى التوبة إليه:

﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ هود/ ٩٠.

ويدعونا الله تعالى إلى التوكل على الله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ الأحزاب/ ٣.

ويدعونا الله إلى التسليم له وتفويض الأمر إليه والدخول في دائرة السلم المطلق بين يدي الله تعالى، لا اعتراض ولا اقتراح إلا ما يجعله الله في نفس عبده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ البقرة/٢٠٨.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ النساء/ ١٢٥.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/١٣١.

﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ آل عمران/ ٢٠.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ غافر/ ٦٦.

والتفويض تسليم لرب العالمين كما ذكرت ذلك من قبل.

- ٣ -

المراحل المتوسطة

قلنا أن منازل السلوك تقع بين (المعرفة) و(التفويض)، وهي منازل كثيرة لا نطيق إحصائها وشرحها.

نقطة البداية فيها المعرفة.

ونقطة النهاية فيها التفويض.

وبينهما منازل ومراحل متوسطة وكثيرة في طريق العبد إلى الله تعالى.

وفي كل منزل من هذه المنازل يجري جهد مزدوج، مترابط، باتجاهين متعاكسين.

الشوط الأول، إضعاف الأنا والهوى وتطويعهما وتقييدهما وقهرهما لأمر الله وتهذيبهما ... والمرحلة الأخيرة من هذا الشوط إفناء الأنا وإنهاؤه والتحرّر من كل ما يتّصل به وبالهوى.

والشوط الثاني العروج إلى الله تعالى باتجاه العودة إلى الله من الذنوب والمعاصي وهو التوبة. والالتزام بالطاعة وامتثال

أحكام الله، والانضباط ضمن حدود الله تعالى والحذر من الخروج عن حدود الله تعالى ... وهي منازل كثيرة في العروج إلى الله والولاء لله وحب الله وطاعته، والانس بالله، والتسليم لله، والقدوم على الله.



العلاقة بين المعرفة والسلوك:

وهذه المنازل ذات وجهين: الوجه الأول منها المعرفة، والوجه الثاني منها السلوك. وبين المعرفة والسلوك علاقة وثيقة ، تنبع هذه من ذاك، وينبع ذاك من هذه، ولكل معرفة سلوك من سنخها.

فإذا عرف الإنسان: أنّ الله تعالى ربّ العالمين الرحمن الرحيم، حمد الله تعالى.

وإذا عرف أن الله تعالى هو الولي الحاكم على عباده، أطاع الله وعبده.

وإذا عرف أن الله تعالى يستجيب دعائه، دعا الله وسأله.

وإذا عرف أن الله هو الغفار، استغفر الله وتاب إليه.

وإذا عرف أن الله شديد العقاب، خاف مقام ربّه.

وإذا عرف أن الله واسع الرحمة، رجا الله.

وإذا عرف أن الله يحب عباده ويكرمهم، أحبّ الله ...

إذن، السلوك إلى الله تعالى، طريق طويل، بدايته معرفة الله، ونهايته تفويض الأمر إلى الله، وبين هذه البداية وتلك النهاية مراحل كثيرة من السلوك مثل العبودية والطاعة والخوف والرجاء والإخلاص، والحب والتواضع والشكر والحمد ...

وقد وردت الاشارة في النصوص الإسلامية إلى العلاقة بين المعرفة والسلوك في هذه المنازل، واليك طائفة من هذه النصوص:

عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعفّ نفسه بالصيام والقيام).

وعن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: (عجبت لمن عرف ربّه، كيف لا يسعى لدار المقام).

وعن الصادق عليه السلام: (من عرف خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا)[١].

وعن علي عليه السلام: (من سكن قلبه العلم بالله سكنه الغنى عن خلق الله).

وعن علي عليه السلام: (لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظّم).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من كان بالله أعرف كان من الله أخوف).

وعن علي عليه السلام: (غاية المعرفة الخشية).

وعن علي عليه السلام: (غاية العلم الخوف من الله سبحانه).

وعن علي عليه السلام: (اعلم الناس بالله أكثرهم له مسألة).

وعن علي عليه السلام: (عجبت لمن عرف الله كيف لا يشتد خوفه).

وعن علي عليه السلام: (ينبغي لمن عرف الله أن يتوكل عليه).

وعن علي عليه السلام: (ينبغي لمن عرف الله أن لا يخلو قلبه من

---

(١) ميزان الحكمة ٦:١٥٥ – ١٦٠.

رجائه وخوفه طرفة عين).

وعن علي عليه السلام: (العارف وجهه مستبشر وقلبه وجل محزون).

وعن علي عليه السلام: (البكاء من خيفة الله عبادة العارفين).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لكل شيء معدن، ومعدن التقوى قلوب العارفين).

وعن علي عليه السلام: (يسير المعرفة يوجب الزهد في الدنيا).

وعن علي عليه السلام: (ثمرة المعرفة العزوف عن الدنيا).

وعن علي عليه السلام: (من عرف الله توّحد).

وهذه النصوص بيان لـ محطّات تكامل الإنسان بمعرفة الله تعالى.

فإنّ معرفة الله كما ورد في النصوص: هي أساس السعي إلى دار الآخرة، والزهد في الدنيا والعزوف عنها، والغنى عن خلق الله، والتواضع، والدعاء، والمسألة من الله، والتوكّل على الله، والخوف والخشية، والرجاء، والحزن، والهم، والبكاء، والتقوى، والتوحيد وغير ذلك.

هذه جملة من محطّات تكامل الإنسان في هذه الرحلة

الطويلـة الشّـاقة الشـيّقة التـي تبـدأ بالمعرفـة وتنتهـي إلـى التفويض.

* * *

استعراض لمنازل السلوك

المنزل الأول في هذه الرحلة الطّاعة، والعبودية والتقوى.

وتتوالى المنازل من بعده، منزلا بعد منزل.

منها منزل (الحزن) عمّا فرّط من العبد وما أضاع من عمره (والحزن) غير (الكآبة). ان الكآبة مرض والحزن عافية.

ومنهـا منـزل (الخـوف) مـن غضـب الله تعـالى وسـخطه والخوف من سوء العاقبة.

ومنها منزل (الرجاء) إلـى الله تعـالى ورحمتـه، وهـو منـزل يتعادل فيه الخوف والرجاء.

ومنهـا منـزل (الإخـلاص) وفـي هـذا المنـزل يـتم تصـفية العمل عمّا يشـوبه ممّـا لا يكـون لله تعـالى، وتهـذيب الـنفس وتخليصه من كل شيء يراد لغير الله تعالى.

ومنها منزل (التبتّل) و(الانقطـاع) إلـى الله تعـالى مـن كـل

شيء ومن كل أحد.

ومنها منزل (التوكّل) على الله، فيتّخذ العبد ربّه وكيلا عنه في شؤونه وأعماله.

وقريب منه وربما قبل هذا المنزل منزل الثقة بالله.

ومنها منزل (الرضا) بأمر الله، في السّراء والضرّاء.

ومنزل (الشكر) لله.

ومنزل (الحياء) من الله.

ومنزل (الصدق) في التعامل مع الله تعالى.

ومنها منزل الالتزام بالأدب بحضور الله، والكون كلّه محضر لله تعالى وهو منزل (الأدب) في التعامل مع الله تعالى.

ومنها منزل (اليقين) بالله تعالى وهي قمّة منازل المعرفة.

ومنها منزل (الحبّ) لله تعالى والشّوق إلى الله و(الأنس بالله) وهي منازل تشدّ قلب العبد بالله تعالى بوثاق الحبّ والهيام والوجد.

ومنها منزل (الفقر)إلى الله تعالى والشعور بـ (الاضطرار إلى الله).

ومنها منزل السكينة والطمأنينة، وهو المنزل الذي يقول

عنه تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ الرعد/ ٢٨. فيطمئن القلب بالله في الشدّة والضرّاء ... يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة المتّقين (نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرّخاء).

وهكذا تتصاعد منازل السلوك إلى الله تعالى حتى ينتهي إلى منزل (التفويض)، وهو آخر منازل السلوك إلى الله، حيث يَدَعُ العبد كلَّ شيء لله تعالى، ولا تكون له ذاتية ولا أنا ولا أنانية، ولا هوى، ويترك الأمر كلّه لله تعالى، وهذا آخر منازل السير إلى الله.

ولم نقصد بما ذكرناه إحصاء منازل السير إلى الله تعالى، ولا تنظيم التسلسل الفنّي لهذه المنازل، وإنّما قصدنا بذلك تسمية جملة من هذه المنازل ومنهج عروج العبد إلى الله تعالى في مدارج هذه المنازل. والله المستعان على ذلك. ونسأله تعالى أن يأخذ بأيدينا على هذا الطّريق منزلا فمنزل، ومرحلة فمرحلة.

الفهـــــرس